المحاضرة الثالثة: النقد الانطباعي مفهومه ومجالاته ونماذج من نصوصه

لا شك أن النقد هو فن دراسة العمل الأدبي، لمعرفة جيده من رديئة وذلك بتحليله وتفسيره وتقدير قيمته الفنية. وقد ظهر عند العرب منذ العصر الجاهلي، ولكنه كان يدور في فلك " الانطباعية الخالصة والأحكام الجزئية التي تعتمد المفاضلة بين بيت وبيت أو تمييز البيت المفرد أو إرسال حكم عام في الترجيح بين شاعر وشاعر".

وعليه فالنقد الانطباعي كان في المراحل المبكرة للنقد العربي، فيا ترى ما مفهومه وما خصائصه ؟

مفهوم النقد الانطباعي:

هو نقد يصدر من شخص تحت تأثير الانطباعات الأولية السريعة الذوقية أو المزاج الخاص الفردي، ولم يصدر عن تفكير عميق وتأمل ودراسة معمقة، كما يكون هذا النقد أحكاما جزئية عامة سريعة غير معللة، يصف فيها الناقد النص ولا يبين الأسباب التي دفعته إلى ذلك.

ويتميز هذا النوع من النقد بالسذاجة والبساطة والمبالغة في إصدار الأحكام، لأنه مبني على الانفعال والتأثر والنظرة العجلى، ولم يبن على قواعد وأسس علمية صحيحة اتفق عليها العلماء.

هذا والمتتبع للنصوص النقدية العربية منذ النشأة يراها " بسيطة، حيث كان الناقد يعتمد على ذوقه وانطباعه الفطري، يوجه نقده للشعر في كلمة أو جملة تجاه بيت أو عدة أبيات كانت قد تركت في نفسه أثرا معينا، لان الانطباع البسيط فطري في الإنسان".

كما نجد هذا النوع من النقد يتجسد في عبارات كثرت في ذلك العصر (بداية النقد) كأن يقول الناقد: هذا أشعر بيت، هذه أجمل قصيدة، أشعر الجن والإنس... وغيرها.

نماذج من نصوصه:

* من صور النقد الانطباعي ما يكون ملاحظات سريعة جزئية تعتمد على الذوق والسليقة، و من ذلك مثلا:"مر المسيب بن علس بمجلس قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم ،فلما بلغ قوله:

وَقَدْ أَتَنَاسَى الهَمّ عِنْد إذكاره بِناجٍ عليه الصّيْعرية مُكدَمِ

فقال طرفه وهو صبي يلعب مع الصبيان: استنوق الجمل، وهو يريد أن الشاعر وهو يصف الجمل ذكر من أوصافه ما يخص الناقة (الصيعرية)، وهي سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق الجمل. وقد استعملها المسيب استعمالا خاطئا.

* ومن ذلك ما يروي أن" النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها. فكان أول من أنشده الأعشى: ميمون بن قيس، أبو بصير، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري:

لَنَا الجفنات الغرّ يَلْمَعْنَ بالضّحَى وَأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَما

وَلَدْنا بَنِي العَنْقاء وابني مُحرّق فأكْرِم بنا خالا وأكرِم بنا ابنما

فقال له النابغة: أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ".

- هذا نقد وجهه النابغة الذبياني إلى حسان ، فهو يعيب عليه الإقلال من الجفان لأنها رمز للكرم ، فيريد منه أن يبلغ أقصى حدود الكرم وأن يكثر من جفانه. حتى أن **الصولي** علق على نقد النابغة لحسان فقال : " فانظر إلى هذا النقد الجليل الذي يدل عليه نقاء كلام النابغة وديباجة شعره ، فقال له : أقللت أسيافك لأنه قال : وأسيافنا وأسياف جمع لأدنى العدد والكثير سيوف ، والجفنات لأدنى العدد والكثير جفان ، وقال : فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، فترك الفخر بآبائه وفخر بمن ولد نساؤه "

فالنقد في البيت الأول هو نقد للمعنى إذ أن العرب كانت تستجيد المبالغة في مقام الفخر ، أما البيت الثاني يدل على وعي النابغة بتقاليد العرب وعاداتهم ، فهي تعتدّ بالآباء والأجداد ، وتقيم وزنا لحسب القبيلة ونسبها.

ومن أرقى الأمثلة كذلك ما يروى عن " تحاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر، أيهم أشعر؟. فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيئا فينتفع به، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر، يتلألأ فيها البصر فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر، وأما أنت يا مخبل، فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة(قربة) أحكم خرزها(خياطتها) فليس تقطر ولا تمطر".

هذه أحكام نقدية عامة مبهمة سريعة وليدة ذوق فطري متعجل، غير مبنية على مقاييس واضحة.

- روى المرزباني في موشحه أن امرأ القيس لما كان عند بني طيئ زوجوه منهم أم جندب ، و بقي عندهم ما شاء الله ، و جاءه يوم علقمة ابن عبدة التميمي ، وهو قاعد في خيمته و خلفه أم جندب ، فتذاكرا الشعر ، فقال امرؤ القيس : أنا أشعر منك و قال علقمة : بل أنا أشعر منك ، فقال : قل و أقول ، و تحاكما إلى أم جندب فقالت : قولا شعرا تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروي واحد ، فأنشداها القصيدتين
- فامرؤ القيس أنشدها قصيدته التي مطلعها :

خليلي مرا بي على أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب

- و أنشد علقمة قصيدته التي مطلعها :

ذهبت من الهجران في كل مذهب و لم يك حقا طول هذا التجنب

- فقالت لامرئ القيس : علقمة أشعر منك ، فقال لها : بما فضلت شعره على شعري ؟ قالت : لأن فرس ابن عبدة أجود من فرسك ، قال : و بماذا ؟ ، قالت : لأنك قلت :

فللسوط ألهوب و للساق درة و للزجر منه وقع أخرج مهذب

- فإنك زجرت و حركت ساقيك و ضربت بسوطك ، أما علقمة فقال :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

- ففرسه أجود من فرسك لأنه قد أدرك الخيل ثانيا من عنانه ، من غير أن يضربه بسوط أو يحرك ساقيه فقال امرؤ القيس : ماهو بأشعر مني و لكنك له عاشقة و طلقها فتزوجها علقمة و سمي بالفحل .
- كان حكم أم جندب جزئيا لأنها حكمت على القصيدة من بيت واحد .
- حكم غير موضوعي ،و لو فرضنا أن امرأ القيس هو الذي بدأ فقصيدة علقمة تكرار لها ، و بالرجوع الى القصيدتين و خاصة قصيدة علقمة ففيها أبيات و أشطار و كلمات من قصيدة امرئ القيس ، و لو وضعنا في الحسبان أن امرأ القيس كان مشهورا و كان وصافا للأحصنة ، فكيف يتفوق عليه علقمة في وصف الفرس .
- و من النقاد الذين وجهوا أصابع الاتهام لأم جندب **بدوي طبانة** ، و اتهمها بالانحياز والبعد عن الموضوعية حين قال : و قد يكون ما ذهبت إليه أم جندب مقبولا لو أن حصان امرئ القيس لا يسير إلا بتحريك الساقين و الزجر والضرب بالسوط و الحقيقة أن تحريك الساقين و استعمال السوط لازمتان من لوازم كل فارس ، مهما يكون فرسه كليلا بليدا ، أو جوادا حديدا وليس في بيت امرئ القيس ما يدل على بلادة جواده ...
- حكمها لا يستند على استقراء القصيدتين لذلك فان النقد الذي صدر عن أم جندب نقد جزئي ولم تضع في الحسبان الأبيات السابقة واللاحقة ، لأن امرأ القيس قد تدارك في البيت التالي الذي يقول فيه :

فأدرك لم يجهد و لم يثن شأوه يمر كخذروف الوريد المثقب

- وقد استفاد علقمة من هذا البيت باستخدام بعض ألفاظه و أخذ من التشبيه ، فالمتصفح للقصيدتين يجد أن امرأ القيس استهلك كثيرا من المعاني و الألفاظ في الموضوع ، أما علقمة أخد الفرصة الكافية للإنشاد.

وكذا الشأن في أغلب النماذج في العصر الجاهلي فهي تجمع بين الجزئية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلي دون اللجوء إلى التعليل.

- **العصر الإسلامي:**

عند مجيء الإسلام ظهر صراع حول الدين الجديد بين الشعراء وأصبحت الأحكام النقدية تعتمد الصدق والقيم الخلقية. فقد أثر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يستحسن قول طرفة بن العبد ويتمثل به:

سَتُبدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلا ويأتيكَ بالأخبار من لم تزوّدِ

و يروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد بن ربيعة:ألا كل شيء ما خلا الله باطل. صلى الله عليه وسلم.

أما عمر بن الخطاب فكان يتذوق الشعر و ينقده و يرويه و يحض على روايته و حفظه. قال عن زهير بن أبي سلمى:هو قاضي الشعراء و ذلك لقوله:

وإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

هذه الأمور الثلاثة هي مظالع الحق(القسم،المحاكمة،بيان الأمر) على الحقيقة،و رغم أنه جاهلي فقد أكدها الإسلام.

وكذلك عرف عن عمر بن الخطاب نظرته الموضوعية في الشعر فقد روى ابن عباس رضي الله عنه أن عمر سأله: "أنشدني لأشعر شعرائكم قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، قلت: ولم كان كذلك؟ قال: كان لا يعاظل بين الكلام،و لا يتتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه".

في هذا النص نراه قد نفى عن زهير ثلاثة عيوب:تعقيد الكلام.و غريب الألفاظ و حوشيها،و الكذب في المنطق.ثم أثبت له ثلاثا هي من أهم خصائص الشعر وهي :بلاغة الأسلوب و جزالته،فصاحة الألفاظ.صدق المضمون.

وهذا تطور في مفهوم النقد فقد لامس الصياغة و المضمون و الصدق(الشكل و المضمون).

أما علي بن أبي طالب فله رأي في الشعراء المتقدمين يقول فيه:(لو أن الشعراء المتقدمين ضمهم زمان واحد و نصبت لهم راية فجروا جميعا علمنا من السابق منهم.وإلا فالذي لم يقل لرغبة و لا لرهبة.قيل ومن؟قال: الكندي(امرؤ القيس)،قيل و لم؟قال:لأني رأيته أحسنهم نادرة و أسبقهم بادرة).

هذا النص يتضمن بوادر نقدية جديدة تتمثل في:

-وحدة الزمان(لا يجوز الموازنة بين شاعر جاهلي و شاعر عباسي مثلا).

-وحدة الموضوع(الغرض).

-صحة الطبع(الشعر البعيد عن التصنع و التكسب،ولا يقال طمعا في جائزة أو خوفا من عقاب).

-ومثال ذلك امرؤ القيس فقد سبق إلى أمور جديدة ابتكرها هو وتبعه الشعراء فيها.

- **العصر الأموي:**

ظهرت بيئات للنقد، الحجاز، الشام، العراق، وبرز نقاد كابن أبي عتيق وسكينة بنت الحسين في الحجاز، وبعض اللغويين والرواة في العراق، وبعض الشعراء والخلفاء في الشام. ففي الحجاز يروى أن سكينة بنت الحسين كانت مهتمة بنقد أشعار النسيب(الغزل)، فهي تأخذ على جرير غلظة ذوقه برده الطيف حين أتاه زائر وقد علقت على قوله:

طَرَقَتْكَ صَائِدةُ القُلوبِ وليس ذا حين الزيارةِ فارجعي بسلام

وقالت: أفلا أخذت بيدها ورحبت بها وقلت: أدخلي بسلام، أنت رجل عفيف ".

و يروى أن عبد الله بن أبي عتيق لما سمع قول عمر بن أبي ربيعة:

بينما ينعتنني أبصرنني دون قيد الميل يعدو بي الأغر

قالت الكبرى:أتعرفن الفتى؟ قالت الوسطى:نعم هذا عمر

قالت الصغرى و قد تيمتها: قد عرفناه و هل يخفى القمر؟

فقال له:أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك،و كأنه ينتقد ذلك الاتجاه المنحرف في فن الغزل،حيث يصور الشاعر نفسه في صورة المعشوق لا العاشق.

ومن نقد الشعراء لبعضهم البعض ما رواه ابن سلام أن"عكرمة بن جرير حين سأل أباه عن الشعراء، فقال في الأخطل: يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر". وحكم الأخطل في جرير بأنه يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر.

كما ظهر مجموعة من الرواة و النحاة يوجهون ملاحظات لبعض الشعراء،فقد روي أن ابن اسحاق الحضرمي وجه نقدا لقول الفرزدق:

و عض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فقد رفع كلمة (مجلف) وهي تأتي منصوبة لأنها معطوفة على(مسحتا).

هذا و قد كان الشعراء يدخلون على الخلفاء فينشدونهم، و كان الخلفاء بدورهم يوجهون بعض الملاحظات لهؤلاء الشعراء،ومن أشهر هؤلاء الخلفاء عبد الملك بن مروان،فقد روي أنه لما سمع قول جرير:

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم قومك بالرواح

فقال له:بل فؤادك أنت.و كأنه يعلمه أدب مخاطبة الخلفاء.

وعلى الجملة فالنقد في العصر الإسلامي والأموي نما، ولكنه نمو في حدود ما رأينا في العصر الجاهلي، فلا يزال يستلهم الذوق والشعور، ولا يزال نقدا جزئيا " بسيطا غير معقد، ولا يزال الناقد يستوحي وجدانه الخاص، ولا يرجع إلى مقاييس دقيقة".

وإذا فالنقد لا يزال فطريا غير معلل،(إلا في بعض الشواهد القليلة)،فهو يعتمد الذوق الأدبي المرهف لا القواعد وذكر الأسباب، ولم يتخذ النقد في ذلك الوقت صورة الدراسة المنهجية.

المصادر و المراجع:

-العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده:ابن رشيق.

-الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء:المرزباني

-الشعر و الشعراء:ابن قتيبة.

-النقد الأدبي:أحمد أمين.

-النقد الأدبي عند العرب و اليونان:قصي الحسين.

-تاريخ النقد الأدبي عند العرب:طه أحمد إبراهيم.

-في النقد الأدبي:عبد العزيز عتيق.